لأخته وشَجُّه لها ، أعاده إلى سلامة الفطرة والطويّة ، فلما سمع منها القرآن وصادف منه قلباً نقياً وفطرة سليمة تأثر به ، فأسرع إلى رسول الله يعلن إسلامه .

إذن : فقولكم : ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا .. (٤٢)﴾ [الفرقان] دليل على أنه كُفْء للمهمة التى بعث بها ، وهذا يناقض قولكم سخريةً منه واستهزاءً : ﴿أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١)﴾ [الفرقان]

وقولهم : ﴿لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا .. (٤٢)﴾ [الفرقان] يدل على أنه ﷺ فعل معهم أفعالاً اقتضتْ منهم أنْ يصبروا[1] على الضلال ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الفرقان] سيعرفون ذلك ، لكن بعد فوات الأوان ، وبعد ألاَّ تنفعهم هذه المعرفة .

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣)﴾

الحق - تبارك وتعالى - يضع لرسوله ﷺ قضية ، هى أن الدين إنما جاء ليعصم الناس من أهواء الناس ، فلكُلِّ نفس بشرية هَوىً ، وكل إنسان يعجبه هواه ، وما دام الأمر كذلك فلن ينقاد لغيره ؛ لأن غيره أيضاً له هوىً ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

لكن ، لماذا تختلف الأهواء ؟ قالوا : لأن طبيعة الحياة تتطلب أن تكون الأهواءُ مختلفةً ؛ لأن مجالات الحياة متعددة ، فهذا هواه فى كذا ، وهذا هواه فى كذا . فترى الصَّديقَيْن يلازم أحدهما الآخر ، ويشاركه طعامه وشرابه ، فلا يفرقهما شىء ، فإذا ما ذهبا لشراء

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٩١١/٧) : « أى : حبسنا أنفسنا على عبادتها » .

شىء ما تباينتْ أهواؤهما ، كما أن هوىً مختلفاً يخدم هوىً مختلفاً ، فالذين اختلفوا مثلاً فى تصميم الأشياء يخدمون اختلاف الأذواق والأهواء ، لذلك يقولون : خلاف هو عَيْن الوفاق ، ووفاق هو عَيْن الخلاف .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بسيطاً : هَبْ أنك دخلتَ مطعماً ، وأنت تفضل مثلاً ورك الدجاجة وغيرك كذلك يفضله ، وصادف أن فى المطعم (وركاً) واحداً ، فلا شكَّ أنكما ستختلفان عليه . إذن : اتفقتما فى الأول لتختلفا فى الآخر ، لكن إن اختلفتْ رغباتكما ، فسوف ينتج عن هذا الاختلاف اتفاقٌ فى النهاية ، فأنت ستأخذ الورك ، وغيرك سيأخذ الصدر ، فهذا - إذن - خلاف يؤدى إلى وفاق ، ووفاق يؤدى إلى خلاف .

هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ .. (٤٣) ﴾ [الفرقان] الهَوَى . أن تكون هناك قضية ظاهرٌ فيها وَجْه الحق ، إلا أنك تميلُ عنه وأنت تعرفه ، لا أنك تجهله .

لذلك يقول العلماء : آفةُ الرأى الهوى . فالرأى قد يكون صائباً ، لكن يميل به الهوى حيث يريد الإنسان ، وقلنا : لا أدلَّ على ذلك من أن الرجل منهم كان يسير فيجد حجراً أجمل من حَجره الذى يعبده ، فيلْقى الإله الذى يعبده ليأخذ هذا الذى هو أجمل منه فيتخذه إلهاً ، إذن : هواه فى جمال الحجر غلب أنه إله .

وقد وقف المستشرقون عند قوله تعالى فى حَقِّ النبى ﷺ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) ﴾ [النجم]

يقولون : كيف يحكم الله بأن رسوله لم ينطق عن الهوى ، وقد عدَّل الله له بعض ما نطق به ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ

تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. (١)﴾ [التحريم]

وقال تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ .. (٤٣)﴾ [التوبة]

ولا بُدَّ أن نُحدِّد مفهوم الهوى أولاً : أنت مدرك أن لديه قضيتين : الحق واضح فى إحداهما ، إلا أن هواه يميل إلى غير الحق . إنه ﷺ نطق لأنه لم تكن هناك قضية واقعة ، وهو يعرف وجه الحق فيها ، فهو - إذن - لم يَسِرْ على الهوى ، إنما على ما انتهى إليه اجتهاده .

ألاَ ترى قوله تعالى لرسوله ﷺ فى مسألة تبنِّيه لزيد بن حارثة ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] فمعنى أن نسبته لأبيه أقسط أن رسول الله لم يكُنْ جائراً ، فما فعله قِسْط ، لكن فِعْل الله أقسط منه .

فالحق - تبارك وتعالى - لم يُخطِّئ رسوله ﷺ ، وسمَّى فعْله عدلاً ، وهو عَدْل بشرى يناسب ما كان من تمسُّك زيد برسول الله ، وتفضيله له على أهله ، فلم يجد رسول الله أفضلَ من أنْ يتبنَّاه مكافأةً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣)﴾ [الفرقان] وكيلاً يتولَّى توجيهه ، ليترك هواه ويتبع الحق ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢)﴾ [الغاشية] وقال : ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾ [يونس] وقال : ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ .. (٤٨)﴾ [الشورى]

فالذى اتبع هواه حتى جعله إلهاً له لا يمكن أنْ تحمله على أنْ

يعدل عن هواه ؛ لأن الأهواء مختلفة ، فالبعض يريد أنْ يتمتع بجهد غيره ، فيضع يده فى جيوب الآخرين ليسرقهم ، لكن أيسرُه أن يفعل الناسُ معه مثلَ فعْله معهم ؟ إذن : هوى صادمَ هوى ، فأيُّهما يغلب ؟ يغلب مَنْ يحكم بلا هوى ، لا لك ولا عليك ، وقضية الحق فى ذاتها لا توجد إلا من الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

﴿ يَسْمَعُونَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] أى : سماع تعقُّل وتدبُّر ، فلو سَمعُوا وعَقلوا ما وصلتْ بهم المسائل إلى هذا الحدِّ ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] مع أن الأنعام مُسخَّرة وتُؤدِّى مهمتها ولم تمتنع عن شىء خُلقَتْ له ، فقد شبَّههم الله بالأنعام ؛ لأن الأنعام لا يُطلب منها أن تسمع الهداية لأنها مُسخَّرة ، والذى يُطلب منه السماع والهداية هو المخيَّر بين أن يفعل أو لا يفعل .

كأن الحق سبحانه يقول : أتظن أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ وكلمة ﴿ أَكْثَرَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] تدل على أن بعضهم يسمع ويعقل ، وهذا من قانون الاحتمال ، فكثير من كفار قريش ناصبوا رسول الله العداء ، وانتهى الأمر بهم إلى أنْ أسلموا وحَسُن إسلامهم ، إذن : كان فيهم مَنْ يسمع ، ومَنْ يفكر ويعقل ؛ لذلك قال ﴿ أَكْثَرَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] ليحمى هذا الحكم ، وليحتاط لما سيقع من إيمان هؤلاء البعض ، هذا دقَّة فى تحرِّى الحقيقة .

وسبق أنْ ذكرنا ما كان من أسف المؤمنين حين يفوتهم قَتْل أحد صناديد الكفر في المعركة ، فكانوا يألمون لذلك أشدَّ الألم ، وهم لا يدرون أن حكمة الله كانت تدخرهم للإيمان فيما بعد ، ومنهم خالد ابن الوليد الذي أصبح بعد ذلك سيف الله المسلول .

والأنعام قُلْنا : لا دخلَ لها في مسألة الهداية أو الضلال ؛ لأنها مُسخَّرة لا اختيارَ لها ؛ لذلك ضرب الله بها المثل لليهود : ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ⑤﴾ [الجمعة] فالحمار مهمته أنْ يحمل فحسب ، أمّا أنت أيها اليهودي فمهمتك أن تحمل وتطبق ، الحمار لا يطبق ؛ لأنه لم يُطلب منه ذلك ، مع أن الحيوان يعرف صاحبه ويعرف طعامه ومكان شرابه ، ويعرف طريقه ومكان مبيته ، حتى أن أحدهم مات على ظهر جواده ، فسار به الجواد إلى بيته .

إذن : فالأنعام تفهم وتعقل في حدود المهمة التي خلقها الله لها ، ولا تُقصِّر في مهمتها ، أما المهمة الدينية فتعلمها في باطن الأمر ، لكن لا يُطلَب منها شيء الآن ؛ لأنها انتهتْ من هذه المسألة أولاً ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ⑦②﴾ [الأحزاب]

فاختاروا أن يكونوا مُسيَّرين بالغريزة محكومين بها ، إذن : فلهم اختيار ، لكن نفّذوا اختيارهم جملةً واحدة من أول الأمر .

خُذْ مثلاً الهدهد وهو من المملوكات التي سخَّرها الله لسليمان - عليه السلام - يقول له : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ②②﴾ [النمل] أيُّ ديمقراطية هذه التي تمتَّع بها الهدهد مع سليمان .؟! إذن : فحتى الحيوانات تعرف هذه القضية ، وإنْ لم يُطلَب

منها شيء ، والحيوانات لا يمكن أنْ تفعل شيئاً إلا إذا كان منوطاً بغرائزها وفى مقدورها .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالحمار ، إذا أردتَ منه أن يقفز فوق جدول ماء فإنه ينظر إليه ، فإنْ كان فى مقدوره قفزَ ، وإنْ كان فوق مقدوره تراجَع ، ولا يمكن أنْ يُقدم مهما ضربته ؛ لأنه علم بغريزته أنه فوق إمكاناته ، أما الإنسان فقد يُقدم على مثل هذا دون حساب للإمكانات ، فيُوقع نفسه فيما لا تُحمد عقباه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - وهو خالق الآيات فى الكون يُنبِّه إليها الخَلْق ، وكان من المفروض ممَّن يرى الآيات أنْ يتنبه إليها بدون أنْ يُنبه ، فإذا رأى عجيبة من عجائب الكون تأملها ، وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً بمَن انقطعت به السُّبل فى صحراء شاسعة ، ليس بها أنيس ولا حياة ، وقد بلغ به الجهد حتى نام ، فلما استيقظ وجد مائدة عليها أطايب الطعام أو الشراب ، بالله قبل أنْ تمتدَّ يده إلى الطعام ، أليس من المفروض أنْ يفكر فى هذا الطعام ، مَنْ أتى به ؟ وأعدَّه على هذه الصورة ؟

إذن : فى الكون آياتٌ كان يجب أنْ تشدَّ انتباهك لتبحث فيها وفى آثار وجودها وكلها آيات عالية عنَّا وفوق إمكاناتنا : الشمس والقمر ، الهواء والمطر .. إلخ . ومع ذلك لم يتركك الله ؛ لأن تتنبه أنت ، بل نبَّهك ولفتَك وجذب انتباهك لهذه ولهذه .

وهنا ، الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعرض الآيات والكونيات التى يراها الإنسان برتابة كل يوم ، يراها الفيلسوف كما يراها راعى الشاة ، يراها الكبير كما يراها الصغير كل يوم على نظام واحد ، لا يكاد يلتفت إليها .

يقول سبحانه : ﴿ألم تر .. (٤٥)﴾ [الفرقان] أى : ألم تعلم ، أو ألم تنظر إلى صَنْعة ربك ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ[1] سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥)﴾ [الفرقان] نعم نرى الظل ، فما هو ؟ الظل أنْ يَحْجب شىء كثيف على الأرض ـ مثل جبل أو بناء أو شجرة أو نحوه ـ ضوءَ الشمس ، فتظهر منطقة الظل فى المكان المُشْمس ، فالمسألة ـ إذن ـ متعلقة بالشمس ، وبالأرض التى نعيش عليها .

وقد علمنا أن الأرض كرة تواجه الشمس ، فالجهة المواجهة منها للشمس تكون مُضَاءة ، والأخرى تكون ظلاماً لا نقول ـ ظلاً ، فما الفرق بين الظلِّ والظلام ؟ قالوا : إذا كان الحاجبُ لضوء الشمس من نفس الأرض فهى ظُلْمة ، وإنْ كان الحاجب شيئاً على الأرض فهو ظل .

والظل نراه فى كل وقت ، وقد ورد فى عدة مواضع من كتاب الله ، فقال سبحانه : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (٤١)﴾ [المرسلات]

وقال : ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧)﴾ [النساء]

وقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ .. (٤٨)﴾ [النحل]

ينبهنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ إلى مهمة أخرى من مهام الظل ، وهى أنه يحمينا من وَخْزة الشمس وحرارتها ، ويرتقى الإنسان فى استخدام الظل فيجعله كما قال تعالى ﴿ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧)﴾ [النساء] أى :

(١) أى : دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس . قاله القرطبى فى تفسيره (٤٩١٤/٧) .

أن الظل نفسه مُظلَّل ، فيجعلون الخيمة مثلاً لها سقفان منفصلان حتى لا يتأثر داخلُ الخيمة بالحرارة خارجها .

لذلك تجد ظل الشجرة ألطفَ من ظلِّ الحائط مثلاً أو المظلة ؛ لأن أوراق الشجرة يُظلِّل بعضها بعضاً ، فالظل يأتيك من مُظلل آخر ، فتشعر تحت ظل الشجرة وكأنك في (تكييف) ؛ لأن الأوراق تَحجب عنك حرارة الشمس ، في حين تسمح بمرور الهواء ، كما قال الشاعر في وصف دوحة :

يصدُّ الشمسَ أنَّى وَاجَهتْنَا ... فَيحْجُبُها وَيَأْذَنُ للنَّسِيمِ

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا[1] الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١) ﴾[الأعراف]

وحين تتأمل هذه الظاهرة ساعةَ طلوع الشمس ترى الشيء الكثيف الذي يحجب ضوء الشمس يطول ظلُّه إلى نهاية الأفق ، ثم يأخذ في القصر كلما ارتفعتْ الشمس إلى أنْ يصير في زوال ، ثم ينعكس الظلَ مع ميل الشمس ناحية الغرب فيطول إلى نهاية الأفق .

والحق - تبارك وتعالى - يريد منا أن نلاحظ هذه الظاهرة ، وأنْ نتأملها ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ .. (٤٥) ﴾ [الفرقان] أي : ساعة طلوع الشمس ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا .. (٤٥) ﴾ [الفرقان] لأن مشيئة الله تستطيع أن تخلق الشيء ونقيضه ، فإنْ شاءَ مَدَّ الظل ، وإنْ شاء أمسكه .

---

(١) نتقه نتقاً : رفعه من مكانه وحركه وجذبه . [القاموس القويم ٢/٢٥٢] . قال ابن عباس : رفعته الملائكة فوق رؤوسهم . وذكر سنيد بن داود في تفسيره أن الله أوحى إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربي عز وجل ، لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الخيط . [تفسير ابن كثير ٢/٢٦١] .

ولكنه يتغير : ينقص في أول النهار ، ويزيد في آخره وكل ما يقبل الزيادة يقبل النقص ، والنقص أو الزيادة حركة ، وللحركة نوعان : حركة قَفْزية كحركة عقرب الدقائق في الساعة ، فهو يتحرك بحركة قفزية ، وهي أنْ يمرَّ على المتحرك وقت ساكن ثم يتحرك ، إنما أتدرك ذلك في حركة عقرب الساعات ؟ لا ؛ لأنه يسير بحركة انسيابية ، بحيث توزع أجزاء الحركة على أجزاء الزمن .

ومثَّلْنا هذه الحركة بنمو الطفل الصغير الذي لا تدرك حركة نموه حالَ نظرك له منذ ولادته ، إنما إنْ غبْتَ عنه فترة أمكنك أنْ تلاحظ أنه يكبر ويتغير شكله ؛ لأن نموه مُوزَّع على فترات الزمن ، لا يكبر هكذا مرة واحدة . فهي مجموعات كِبَر تجمعتْ في أوقات متعددة ، وليس لديك المقياس الدقيق الذي تلاحظ به كبر الطفل في فترة قصيرة .

وإذا كنا نستطيع إجراء هذه الحركة في الساعات مثلاً ، فالحق - تبارك وتعالى - يُحدثها في حركة الظل وينسبها لعظمها إلى نفسه تعالى ؛ لأن الظل لا يسير بحركة ميكانيكية كالتي تراها في الساعة إنما يسير بقدرة الله .

والحق سبحانه يلفتنا إلى هذه الظاهرة ، لا لأنها مجرد ظاهرة كونية نراها ونتعجب منها ، إنما لأننا سنستغلها وننتفع بها في أشياء كثيرة .

فقدماء المصريين أقاموا المسلات ليضبطوا بها الزمن عن طريق الظل ، وصنع العرب المسلمون المزْولة لضبط الوقت مع حركة الشمس ، ونرى الفلاح البسيط الآن ينظر إلى ظل شيء ويقول لك : الساعة الآن كذا ؛ لأنه تعوَّد أن يقيس الوقت بالظل ، مع أن مثل هذا التقدير يكون غير دقيق ؛ لأن للشمس مطالعَ متعددة على مرِّ أيام العام ؛ لذلك في أحد معابد الفراعنة معبد به ٣٦٥ طاقة ، تدخل الشمس كل يوم واحدة منها .

إذن : أفادنا الظل فى المسلات والمزاول ، ومـنها انتقل المسلمون إلى عمل السـاعات ، وأولها الساعـة الدقاقة التى كانت تعـمل بالماء ، وقد أهدوا شارلمان ملك فرنسا واحدة منهـا فقال : إن فيها شيطاناً ، هكذا كان المسلمون الأوائل .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ﴾ [الفرقان] أى : أن الضوء هو الذى يدل على الظلّ .

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) ﴾

الحق ـ تبـارك وتعالـى ـ يُبيِّن الحـركـة البطيئـة للظل فـيقـول : ﴿ قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) ﴾ [الفرقان] لا تدركه أنت أبداً ؛ لأن فى كل لحظة من لحظات الزمن حركة فلا يخلو الوقت مـهما قَلَّ من الحركة ، لكن ليس لديك المقياس الذى تدرك به بُطْءَ هذه الحركة .

وقوله : ﴿ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا.. (٤٦) ﴾ [الفرقان] دليل على أن المـسألة ليـست مـيكانيكا ، إنمـا هى بقـيومـيـة الله تعالـى ؛ لذلك فكأن الحق سبـحانه يقـول : يا عبادى نامـوا ملْءَ جفـونكم ، فربُّـكم قـيُّوم على مصالحكم لا ينام .

وأهل المعرفة يسـتنبطون من ظاهرة الظل أسراراً ، فيروْنَ أن ظلَّ الأشياء الشـاهقة المتعـالية يخضـع لله تعالى ، ويسـجد على الأرض ، رغم أنه مُتعال شامخ ، كمـا جاء فى قوله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) ﴾ [الرعد]

وقال سبـحانه : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور] فللظل حركـة بطيئة لا يعلمـها إلا الله ؛ لأنك لا تدرك مدى صـغَرها ؛ لذلك قُلْنا فى الهباء : إنه نهاية ما يمكن أن يكون من التفتيت المنظور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

﴿ اللَّيْلَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : الظلْمة لا الظل ، فالظلمة هى التى منعتْ النور ، وإياك أن تظن أن الظلمة ضد النور ، وتحاول أنت أن تنسخ الظلمة بنور من عندك ، وهذه آفة الحضارة الآن أنْ جعلتَ الليل نهاراً .

وقد تنبه العلماء أخيراً إلى مدى ضرر الأشعة على صحة الإنسان ، لذلك جاء فى الحديث الشريف : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] فالشعاع له عمل وقت حركتك ، لكن ساعة نومك وراحتك ليس له مهمة ، بل هو ضار فى هذا الوقت .

والحق - تبارك وتعالى - يمتنُّ علينا بالليل والنهار ، فيقول : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص]

إذن : فلليل مهمة ، وللنهار مهمة يُوضِّحها هنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان] أى : ساتراً ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٣/٣٨٨) عن جابر بن عبد الله واللفظ للبخارى .

(٢) السرمد : الدائم الذى لا ينقطع . والسرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . [لسان العرب - مادة : سرمد] .

كما أن اللباس يستر الجسم ، والنوم ردع ذاتى يقهر الكائن الحى ، وليس ردعاً اختيارياً .

لذلك تلاحظ أنك إنْ أردت أنْ تنامَ فى غير وقت النوم تتعب وترهق ، أمّا إنْ أتاك النوم فتسكن وتهدأ ، ومن هنا قالوا : النوم ضيف ثقيل إنْ طلبته أعْنَتكَ ، وإنْ طلبك أراحك .

لذلك ساعة يطلبك النوم تنام ملْء جفونك ، ولو على الحصى يغلبك النوم فتنام ، وكأن النوم يقول لك : اهمد واسترح ، فلم تَعُدْ صالحاً للحركة ، أما مَنْ غالب هذه الطبيعة فأخذ مثلاً حبوباً تساعده على السهر ، فإنْ سهر ليلة نام بعدها ليلتين ، كما أن الذى يغالب النوم تأتى حركته مضطربة غير متوازنة .

فعليك - إذن - أن تخضع لهذه الطبيعة التى خلقك الله عليها وتستسلم للنوم إنْ ألحَّ عليك ، ولا تكابر لتقوم فى الصباح نشيطاً وتستأنف حركة حياتك قوياً صالحاً للعمل وللعطاء .

وللصوفية فى النوم ملْحظ دقيق يُبْنَى على أن الكون كله غير المختار مُسبِّح لربه ، كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور] وعليه ، فذرات الكافر فى ذاتها مؤمنة ، يؤلمها ويغيظها أن صاحبها عَاص أو كافر فتطيعه ، وهى كارهة لفعله بدليل أنها ستشهد عليه يوم القيامة ، فإنْ كانت مُسخَّرة لمراداته فى الدنيا فإنها ستتحرر من هذه الإرادة فى الآخرة .

فاللسان مُسخَّر لصاحبه ، إنْ شاء نطق به الشهادتين ، وإنْ شاء نطق به كلمة الكفر ؛ لأنه مقهور لإرادته ، أما فى القيامة فلا إرادة إلا للحق تبارك وتعالى .

وفى النوم ترتاح هذه الجوارح وهذه الذرات من سيئات صاحبها ومن ذنوبه ، تستريح من نكده وإكراهه لها على معصية الله . فالنوم

رَدْع طاقىّ ، فلم يَعُد الإنسان صالحاً للحركة ، ولا للتعايش السالم مع جوارحه ، لقد كثُرتْ ذنوبه ومعاصيه حتى ضاقتْ بها الجوارح ، فيأتى النوم ليريحها .

وهذه الظاهرة نشاهدها مثلاً فى موسم الحج ، يقول لك الحاج : يكفينى أنْ أنامَ في اليوم ساعة أو ساعتين لماذا ؟ لأن السيئات فى هذا المكان قليلة ، فجوارحك فى راحة وانسجام معك فلا تحملك على النوم ، أمّا العاصى فلا يكفيه أن ينام عشر ساعات ؛ لأن جوارحه وأعضاءه مُتْعَبَة متضايقة من أفعاله .

وهذه نُفسِّر بها أن رسول الله ﷺ كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه[1] ذلك لأن جوارحه ﷺ تصحبه خير صُحْبة ، فهى فى طاعة دائمة مستمرة ، فكيف تحمله على أنْ ينام ؟

والخالق ـ عز وجل ـ يعامل الناس على المعنى العام ، فالنفوس دائماً ميَّالة للشر جانحة للسوء ؛ لذلك تتعب الطاقة وتتعب الجوارح ، وكأن الله تعالى يريد إحداث هُدْنة للتعايش بينك وبين جوارحك ، ثم لتصبح نشيطاً .

ومعنى ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا .. ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان] السَّبْت أى : القطْع . فمعنى ﴿سُبَاتًا .. ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان] يعنى : قاطعاً للحركة ، لا انقطاعاً نهائياً ، إنما انقطاعاً مُستأنفاً لحركة أفضل ، وبدن أقوى وأصحّ ، فالذى يقضى ليله ساهراً يقوم من نومه مُتْعباً مُضطرباً ، على خلاف مَنْ جعل وقت النوم للنوم ؛ لأن الخالق عز وجل جعل نومك بالليل على قَدْر ما تتحرك بالنهار ، فإنْ أردتَ حركة مُتزنة نشيطة وقوية فنَمْ على مقدار هذه الحركة .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٦٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين . أن رسول الله ﷺ قال : « يا عائشة ، إن عينىَّ تنامان ، ولا ينام قلبى » .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) ﴾ [الفرقان] النشور مثل الشُّكور : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩) ﴾ [الإنسان] أي : شكر ، وكذلك النشور أي نشر ، والنشر يعني الانطلاق في الأرض بالحركة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) ﴾

قلنا : إن الرياح إذا جاءت هكذا بصيغة الجمع دلَّتْ على الخير ، وإنْ جاءتْ مفردة فهي آتية بالشر ، وإذا نظرتَ إلى الجبال العالية وإلى ناطحات السحاب تقول : ما الذي يقيم هذه المباني العالية ، فلا تميل ؟ الذي يمسكها هو الهواء الذي يحيط بها من كل ناحية ، ولو فرَّغْتَ الهواء من أحد نواحيها تنهار فوراً .

إذن : فالريح من هنا ، ومن هنا ، ومن هنا ، فهي رياح متعددة تُصلح ولا تُفسد ، وتُحدث هذا التوازن الذي نراه في الكون ، أمّا الريح التي تأتي من ناحية واحدة فهي مدمرة مهلكة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ[1] عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة]

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف]

ومعنى ﴿ بُشْرًا .. (٤٨) ﴾ [الفرقان] بسكون الشين ، مع أنها في

(١) الريح الصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

الأصل بُشُراً مثل رُسُل ، فلما خُفِّفَتْ صارت بُشْراً ، والبُشْرى هى الإخبار بما يسرُّ قبل زمنه ، فلا تقول يبشرَ إلا فى الخير ، وكان العربى ساعة تمر عليه الرياح يعرف كم بينه وبين المطر ، فيحكم على مجىء المطر بحركة الرياح الطرية التى تداعب خدّه .

وقوله سبحانه : ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِه .. (٤٨) ﴾ [الفرقان] يقال : بين يديك يعنى : أمامك . والمراد هنا المطر الذى يسبق رحمة الله .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً (٤٨) ﴾ [الفرقان] السماء لها معنى لُغوى ، ومعنى شرعى . فهى لغةً : كل ما علاك ، وشرعاً : هى هذه السماء العالية والتى تتكون من سبع سموات ، لكن أينزل المطر من السماء أم من جهة السماء ؟

المطر ينزل من الغمام من جهة السماء ، والغمام أصله من الأرض نتيجة عملية البخر الذى يتجمع فى طبقات الجو ، كما قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى(١) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ(٢) يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ .. (٤٣) ﴾ [النور]

إذن : فرحمة الله هى الماء الذى خلق الله منه كلّ شىء حىٍّ .

---

(١) أزجى الشىء : يسوقه برفق ، فيزجى سحاباً : أى يسوقه إلى حيث يشاء . [القاموس القويم ١/ ٢٨٤ ، تفسير القرطبى ٦/ ٤٨٢٥] .

(٢) فى الودق قولان :

الأول : أنه البرق . قاله أبو الأشهب العقيلى .

الثانى : أنه المطر . قاله الجمهور . [تفسير القرطبى ٦/ ٤٨٢٦] وقد ذكر السيوطى القولين أيضاً فى [الدر المنثور ٦/ ٢١١] الأول عن أبى بجيلة وعزاه لابن أبى حاتم ، والثانى عن الضحاك ومجاهد . عند ابن أبى حاتم وابن أبى شيبة .

وقوله تعالى : ﴿ماءً طَهُوراً (٤٨)﴾ [الفرقان] الطَّهُور : الماء الطاهر فى ذاته ، المطهِّر لغيره ، فالماء الذى تتوضأ به طاهر ومطهر ، أما بعد أنْ تتوضأ به فهو طاهر فى ذاته غير مُطهِّر لغيره ، وماء السماء طاهر ومُطهر ؛ لأنه مُصفًّى مُقطّر ، والماء المقطر أنقى ماء .

بالإضافة إلى أن الماء قوَام الحياة ، منه نشرب ونسقى الزرع والحيوان والطير ، فالماء يعطيك الحياة ويعطيك الطهارة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩)﴾

قوله تعالى : ﴿بَلْدَةً مَيْتاً .. (٤٩)﴾ [الفرقان] أى : أرض بلدة مَيْت ، وفرْق بين ميْت وميِّت : الميْت هو الذى مات بالفعل ، والميِّت هو الذى يؤول أمره إلى الموت ، وإنْ كان ما يزال على قيد الحياة ، ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ [الزمر]

والأرض الميْتة هى الجرداء الخالية من النبات ، فإذا نزل عليها الماء أحياها بالنبات ، كما فى قوله سبحانه : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج]

وقوله تعالى : ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً (٤٩)﴾ [الفرقان] يُقال سقاه وأسقاه : أسقاه : أعدَّ له ما يستقى منه ، وإنْ لم يشرب الآن ، لكن سقاه يعنى : ناوله ما يشربه ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (٢١)﴾ [الإنسان]

أمّا فى المطر فيقول سبحانه : ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ .. (٢٢)﴾ [الحجر] أى : أعددناه لسُقْياكم إنْ أردتم السُّقْيا .

ومعنى ﴿ وَأَنَاسِيَّ .. (٤٩) ﴾ [الفرقان] جمع إنسان ، وأصلها أناسين ، وخُفِّفَتْ إلى أناسيّ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ[1] إِلَّا كُفُورًا (٥٠) ﴾

التصريف : التحويل والتغيير ، والمعنى حَوَّلناه من هنا إلى هنا . ومع كل هذه العبر والآيات ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٥٠) ﴾ [الفرقان] فالكافرون بآيات الله كثير لا يلتفتون إلى آيات الله ، حتى بعد أنْ تقدَّم العلم وتقدَّمتْ الحضارة الإنسانية ، ووقف الناس على كثير من الآيات .

فالحق - تبارك وتعالى - يُصرِّف المطر إلى بلاد بغزارة ، فإنْ شاء أصابها الجفاف والجدب حتى تموت مزروعاتهم وحيواناتهم . إذنْ : ليست المسألة بيئة باردة أو كثيرة الأمطار ، إنما المسألة مرادات خالق ، ومرادات حق .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) ﴾

يريد الحق - تبارك وتعالى - أن يمتنّ على رسوله ﷺ منّة ،

---

(١) « قال عكرمة : يعني الذين يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وهذا الذى قاله عكرمة كما صح فى الحديث المخرّج فى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً على إثر سماء أصابتهم من الليل : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بى مؤمن بالكوكب » . [تفسير ابن كثير ٣/٣٢١] .

فيقــول له : المسألة ليست قلةَ رسل عندنا حــتى نرسل رســولاً للناس كافة وللزمن كله ، ونحن نستطيع أن نُخفِّف عنك ونبعث فى كل قرية رسولاً يُخفِّف عنك عبء الرسالة ، لكنّا نريد لك أنْ تنال شرف الجهاد وشرف المكافحة ، فجمعناها كلها لك إلى أنْ تقوم الساعة .

ونستفيد من هذه المسألة أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يَهَبُ الطاقات لا يعنى هذا أن الطاقــة هى التى تحكم قــدرته فى الأمــر أن يبعث فى كل قرية رسولاً ، إنما يــقدر أن يرسل رسولاً ويعطيه طاقة تتحمل هذا كله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

أى : ما دُمْنا قد جـمعنا لك كل القرى ، وحمّلناك الرســالة العامّة فى كل الزمان وفى كل المكان ، فعليك أن تقف الموقف المناسب لهذه المهمة ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان] إنْ لوَّحُوا لك بالملك أو بالمال أو بالجــاه والشرف ، واعلم أن ما أعده الله لك ومــا ادخره لك فوق هذا كله .

وحين يقــول سبحــانه لرسوله ﷺ ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان] فإنه يعذره أمامهم ، فالرسول ينفذ أوامر الله .

ونَهْى الرسول عن طاعة الكافرين لا يعنى أنه ﷺ يــطيعهم ، فهذه كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا .. ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء] فكيف يطلب الإيمان ممَّنْ ناداهم بالإيمان ؟ إنه تحـصيل حاصل . قالوا : المعنى : أنت آمنتَ قـبل أن أقــول لك هذه الكلمــة ، وأقولهــا لك الآن لتُــواصل

إيماناً جديداً بالإيمان الأول ، وإياك أنْ ينحلّ عنك الإيمان . إذن : إذا طُلِب الموجود فالمراد استدامة الوجود .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ .. (٥٢) ﴾ [الفرقان] أى : بما جاءك من القرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ﴾ [الفرقان] واعلم أنك غالب بأمر الله عليهم ، ولا تقُلْ : إن هناك تيارَ إشراك وكفر وإيمان ، وسوف أعطيك مثلاً كونياً فى أهم شىء فى حياتك ، وهو الماء :

﴿ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ(١) هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ(٢) وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) ﴾

تأتى هذه الآية استمراراً لذكْر بعض آيات الله فى الكون التى تلفت نظر المكابرين المعاندين لرسول الله ، وسبق أنْ ذكر سبحانه : الظل والليل والرياح .. الخ إذن : كلما ذكر عنادهم يأتى بآية كونية ليلفتهم إلى أنهم غفلوا عن آيات الله ، وجدالهم مع رسول الله يدل على أنهم لم يلتفتوا إلى شىء من هذا ؛ لذلك ذكر آية كونية من آيات الله المرئية للجميع ومكررة ، وعليها الدليل القائم إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ .. (٥٣) ﴾ [الفرقان]

المَرْج : المرعى المباح ، أو الكلأ العام الذى يسوم فيه الراعى ماشيته تمرح كيف تشاء.

فمعنى ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ .. (٥٣) ﴾ [الفرقان] أى : جعل العَذْب والمالح يسيران ، كُلٌّ كما يشاء ، لذلك تجد البحار والمحيطات المالحة التى تمثل

(١) مرج : أرسلهما وأفاض أحدهما فى الآخر . قاله مجاهد . وقال ابن عرفة : أى خلطهما فهما يلتقيان . وقال الأزهرى : مرج البحرين . خلَّى بينهما . [تفسير القرطبى ٧/٤٩٢٤] .
(٢) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أجَّ الماء : اشتدت ملوحته . [القاموس القويم ١/٧] .

ثلاثة أرباع اليابسة ليس لها شكل هندسى منتظم ، بل تجده تعاريج والتواءات ، وانظر مثلاً إلى خليج المكسيك أو خليج العقبة ، وكأن الماء يسير على (هواه) ودون نظام ، فلا يشكل مستطيلاً أو مربعاً أو دائرة .

وكذلك الأنهار التى تولدتْ من الأمطار على أعلى الجبال ، فتراها حين تتجمع وتسير تسير كما تشاء ، ملتوية ومُتعرِّجة ؛ لأن الماء يشقُّ مجراه فى الأماكن السهلة ، فإنْ صادفته عقبة بسيطة ينحرف هنا أو هناك ، ليكمل مساره ، وانظر إلى التواء النيل مثلاً عند (قنا) .

إذن : الماء عَذْبٌ أو مالح يسير على هواه ، وليست المسألة (ميكانيكا) ، وليست منتظمة كالتى يشقُّها الإنسان ، فتأتى مستقيمة .

ونلحظ هذه الظاهرة مثلاً حينما يقضى الإنسان حاجته فى الخلاء ، فينزل البول يشقّ له مجرىً فى المكان الذى لا يعوقه ، فإنْ صادفته حصاة مثلاً انحرف عنها كأنه يختار مساره على هواه .

والبحر يقال عادة للمالح وللعذب على سبيل التغليب ، كما نقول الشمسان للشمس والقمر .

ومرْج البحرين آية كونية تدل على قدرة الله ، فالماء مع ما عُرف عنه من خاصية الاستطراق - يعنى : يسير إلى المناطق المنخفضة ، يسير المالح والعذب معاً دون أن يختلط أحدهما بالآخر ، ولو اختلطا لَفَسدا جميعاً ؛ لأن العَذْب إنْ خالطه المالح أصبح غيْرَ صالح للشرب ، وإنْ خالط المالح العذب فسد المالح ، وقد خلقه الله على درجة معينة من الملوحة بحيث تُصلحه فلا يفسد ، وتحفظه أن يكون آسناً .

فالماء العذب حين تحصره فى مكان يأسن[1] ويتغير ، أمّا البحر

(١) أسن الماء يأسن : تغيرت رائحته فهو آسن . [القاموس القويم ١/ ٢٠] .

فقد أعدَّه الله ليكون مخزن المـاء فى الكون ومصدر البَخْر الذى تتكون منه الأنهـار ؛ لذلك حـفظه ، وجـعل بينه وبين المـاء العذب تـعايشـاً سِلْمياً ، لا يبغى أحدهما على الآخر رغم تجاورهما .

وقوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ .. (٥٣) ﴾ [الفرقان] أى : مُفْرط فى العذوبـة مستـساغ ، ومن هذه الكلمـة سَمَّـوْا نهر الفـرات لعذوبة مائه . فلَـيس المراد بالفرات أن المـاء كمـاء نهر الفرات ؛ لأن الـكلمة وُضِـعت أولاً ، ثم سُـمِّىَ بهـا النهـر ، ذلك لأن القـرآن هو كـلام الله الأزلى .

﴿ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ .. (٥٣) ﴾ [الفرقان] أى : شديد الملوحة ، ومع ذلك تعيش فيه الأسماك والحيوانات المائية ، وتتغذى عليه كما تتغذى على الماء العَـذْب ، كمـا قال سبـحانه : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٢) ﴾ [فاطر]

ثم يقول سـبحانه : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) ﴾ [الفرقان] البرزخ : شىء بين شيئين ، وأصل كلمة برزخ : اليابسة التى تفصل بين ماءين ، فإن كان الماء بين يابستين فهو خليج .

﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) ﴾ [الفرقان] الحِجْـر : هو المانع الذى يمنع العَذْب والمالح أنْ يختلطا ، والحِجْر نفسـه محجور ، مبالغة فى المنع من اختـلاط الماءيْن ، كمـا جاء فى قـوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) ﴾ [الإسراء]

ومثل قوله تعالى : ﴿ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾

وفى آية عامة عن المـاء ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : كل شىء فيه حياة فهو من الماء ، لا أن الماء داخل فى كل شىء ، فالمعنى : ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : كل شىء موصوف بأنه حى ، فالماء - إذن - دليل الحياة ؛ لذلك إذا أراد العلماء أن يقضوا على الميكروبات أو الفيروسات جعلوا لها دواءً يفصل عنها المائيةَ فتموت .

والإنسان الذى كرَّمه الله تعالى وجعله أعلى الأجناس ، خلقه الله من الماء ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الفرقان] وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ[1] ﴿٧﴾ ﴾ [الطارق] وهو ماء له خصوصية ، وهو المنىُّ الذى قال الله فيه : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القيامة]

والبشر أى : الإنس ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الفرقان] فمن الماء خلق الله البشر ، وهم قسمان : ذكور وإناث ، فكلمة (نَسَباً) تعنى : الذكورة (وَصِهْراً) تعنى : الأنوثة ؛ لأن النسب يعنى انتقال الأدنى من الأعلى بذكورة ، فيظل الإنسان فلان بن فلان بن فلان..الخ .

---

(١) الترائب : عظام الصدر . [القاموس القويم ١/٩٩] . قال ابن عباس : هذه الترائب . ووضع يده على صدره . وعنه أيضاً : تربية المرأة موضع القلادة . [تفسير ابن كثير ٤/٤٩٨] .